يوزّع مجانا

أهيرة بودهان

خبايا إيمانية في خلايا السرطانية

رؤية وجدانية لمحنة حولها اليقين إلى منحة ربانية

خبـــايا إيمـــانية

في خلاياي السرطانية

رؤية وجدانية لمحنة حولها اليقين إلى منحة ربانية

زهيرة بودهان

إهداء

أهدي هذا الكتاب لأمي حفظها الله

ووالدي رحمه الله

وأختي فريدة أمي الثانية

وأختي ثلجة وفقها الله

ولصديقتي رزيقة رحمها الله

ولجميع مرضى السرطان على وجه الأرض

اعترافا بفضلهم ..

أشكر معلمي الفاضل : الدكتور خالد بن علي ذوييي
أستاذ الحديث وعلومه بكلية العلوم الإسلامية جامعة باتنة بالجزائر
ذلك العالم المتواضع الذي سافر بنا إلى زمن علماء الحديث وجعلنا نحبهم ونحب هذا العلم الشريف
شكرا يا معلمي لأنك علمتني كيف أكون قوية ..

~ ~ ~

وأشكر صديقتي وأختي العزيزة : تسبيح كردي من المملكة الأردنية الهاشمية
شكرا لك لأنك برهنت لي أن الصداقة الحقيقية مازالت موجودة في زمن المصالح ..

~ ~ ~

شكرا جزيلا للدكتورة أسماء يحيى إسماعيل من دولة السودان على ترجمتها للكتاب إلى اللغة الإنجليزية حيث تم نشره على شبكة الألوكة إلكترونيا ، وأسأل الله أن يجعل تلك الترجمة القيمة في ميزان حسناتها ..
والشكر موصول لكل من قرأ هذه التجربة الصادقة فنزلت من عينيه دمعة ونطق فؤاده بدعوة وساهم في نشر الكتاب ابتغاء الأجر ونفع الناس بما فيه من دروس وعبر مهداة مني ومن تجربتي مع مرض السرطان ..

ولله الحمد في الأولى والآخرة

بكثير من التردد.. أقول:

بسمك ربي... حررتُ لغتي..

ونحن نحاول أن نسقي شجرة الصبر بماء ينبع من عين الحقيقة.. حقيقة الحياة الدنيا.. تحاول جماعة من اللصوص تحويل ساقية المياه إلى بحيرة عكرة.. لتتعرض شجرة الصبر إلى الجفاف.. فتذبل أوراقها.. وتتآكل جذورها..وتموت ثمارها في مهدها.. ويهوي جذعها إلى نارٍ مستَعِرة..

~ ~ ~

دوماً كنت أسمع عن السرطان ومرضى السرطان أشياء مخيفة.. مرض قاتل فتاك، من أصيب به فليستعد للرحيل، وقبل أن يرحل عليه أن يذوق ألوان العذاب، ما ألوان العذاب هذه؟ وما هذا الصلع الذي يصيب هؤلاء المرضى الذين نراهم في نشرة الأخبار؟ أين حواجبهم؟ أين أهدابهم؟

كانت هذه الأفكار والتساؤلات فقط هي كل ما يراودني حول هذا المرض ثم سرعان ما أنساها وأعود لأغرق في مشاغلي وشؤون حياتي.. ولم يخطر ببالي ولو للحظة..

أن دوري قريب..

وأن بداخلي خلية غريبة.. بدأت تعمل عملها بكل هدوء.. وخبث..

~ ~ ~

بكثير من التردد قررت أن أكتب عن هذه التجربة الرائعة، نعم، بكل آلامها كانت رائعة..

من لحظة اكتشاف المرض إلى لحظة الشفاء.. كانت رائعة..

وبكل خلية سرطانية ماتت، وبكل خلية سليمة ماتت ثم ولدت من جديد..

كانت تجربة رائعة أخذتني في سنة كاملة إلى عالم شفاف رحب وبرزخ دنيوي عجيب وقفت فيه على جسر يربط بين ضفة الحياة وضفة الموت، وقفت عليه بفكري وروحي وخواطري، بينما كان جسدي مرميا على سرير المستشفى بلا حول ولا قوة..

في ليالي العذاب الجسدي، كانت نفسي مسافرة بين أروقة الخلايا التي يهاجمها الكيماوي بلا رحمة، أحاول أن أستنطقها لتقول كلمتها الأخيرة قبل ساعة الرحيل، فلم تبخل علي بما لن أبخل به عليكم..

وأملت علي كتابا بعنوان

خبايا إيمانية في خلاياي السرطانية

أرجو أن تكون فيه سلوى لمرضى السرطان، وعبرة وفائدة لكم يا من تحملون تاج الصحة على رؤوسكم

والله يتولى السرائر

صديقتي التي قتلها السرطان..:

بين حافر الصبر وناب الموت وشبح الغياب.. ترتجف كلمة " النفس " قلقا وحيرة.. وهي تشاهد أمامها ثلاثة أبواب..

على الأول عنوان يقول: " وبشر الصابرين ".. ثم مرحبا أيتها الحياة..

وعلى الثاني: نفس محطمة.. ثم زاوية سوداء وحيّ على الأحزان ..

وعلى الثالث طلاسم وخربشة وأشكال غريبة.. ثم حبل ينزل من سقف القنوط..يلتف حول هذه النفس لتلحق بغائبها..

أمام فاجعة الغياب.. لا يوجد باب رابع يوهم النفس بعودة الذين ركبوا قطار المنية وعادوا إلى دار القرار..

~ ~ ~

بمثل هذه الأفكار كنت دوما أنظر إلى الموت وعنه أتكلم، وأحاول إقناع أهل الميت أن يختاروا الباب الأول.. " وبشر الصابرين "، فتجيبني نظراتهم بكلام لم أستوعبه إلا بعد أن ماتت صديقتي بالسرطان..

كانت...كانت تطمح لشيء واحد... ظلت تكرره أمامي مدة إقامتي معها..

" أتمنى أن أختم هذا الكتاب حفظا وإتقانا "....

امرأة مضى من عمرها ثمانية و ثلاثون سنة....

لم يُكتب لها الزواج....

تقفز فرحا كالطفل الصغير....

لماذا تقفز فرحا؟....

لأنها قرأت أمامي آيات من كتاب الله فأخبرتها أن تلاوتها تحسنت....

امرأة في الثامنة و الثلاثين.....

تعيش بتفكير امرأة على أبواب الآخرة....

لا يمر يوم في تلك الغرفة الجامعية... دون أن ترتج جدرانها بصوت ساكنتها...

كانت تلاوتها تملأ جدران الغرفة والرواق والغرف المجاورة....

كنا نفتقد التلاوة حين تغيب لزيارة أهلها....

امرأة في الثامنة و الثلاثين....

سمعت صوت المزامير فقالت... قومي بنا ننصح البنات....

مشت أمامي بقوة وشجاعة...

ومشيت خلفها بحذر وترقب...

فأولئك الفتيات... طالبات تحيط بهن الخطورة....

وغالبا ما كنا نتجنب التعامل معهن بسبب سيرتهن هدانا الله وإياهن..

صعدنا إلى الطابق الرابع من الجناح الذي تقع فيه غرفتهن..

فوجئت الفتيات بوجهين جديدين... فما كنا مدعوتين إلى الحفلة..

ألقت الثلاثينية السلام... وأشارت إليهم أن دعوني أجلس فقد أتعبتني السلالم...

جلسَت مرفوعة الرأس... ناظرة إليهن.... متأملة ميوعتهن وأشكالهن.... والباقي من أوصافهن معلوم...

وجلست بجانبها خافضة العينين... أترقب كل شيء.. وأنتظر ردود الفعل...

كان صوت الجهاز لا يزال مرتفعا..

لم تهتم إحداهن لتلك الثلاثينية ولا احترمت هيئتها...

فأصحاب تلك الهيئة في مجتمعنا عادة.... يُحترمون... ويُهابون...

كان عددهن كبيرا.... حوالي عشرين فتاة...

الكل يرتدي الأسود... والكل يرقص بجنون....

فجأة... انبثقت من بينهن فتاة انتبهت لوجودنا فخفضت صوت المزامير..

فبدأت الثلاثينية تتكلم....

نصحت ووجهت... وذكرت بالآيات وحذرت...

والجماعة بين مستمعة باهتمام ومستمعة بازدراء وذاهبة وآتية...

وهاربة من الغرفة برمتها...

فلما تهيأنا للمغادرة... سمعنا أصوات صراخ وبكاء وأوان تتحطم...

وإذا صاحبة عيد الميلاد تبكي على حفلتها التي "أفسدناها" بتطفلنا...

وإذا أترابها يواسينها بلسان حال يقول... "الله على الظالم"....

.....

لم تكن رزيقة تعلم أن ابتسامات الأطباء لها بعد عمليتها الجراحية كانت..

ابتسامات يأس..

وصلت إلى بيتها بعد العملية بأيام قليلة ..

وأثناء تسبيحها لله عز وجل...

ماتت رزيقة رحمها الله

ماتت إثر عملية جراحية بسبب سرطان في المعدة.....

ماتت الأولى في قسمها.... تلك الممتازة.... التي حيرت إجاباتها عقول معلميها....

ماتت.... تلميذة بن القيم...

كانت تحفظ كلامه عن ظهر قلب...

~ ~

لم يصلني خبر وفاتها ابتداء .. فقد ضاع مني رقم هاتفها .. ولم يخبرني أحد بوفاتها ..

شهر مضى.... ورزيقة تحت التراب.....

رزيقة تحت التراب.. وأنا أستعد لزيارتها في الإقامة الجامعية..

لأراها..

لأسمع نصائحها..

لأنصت لتلاوتها..

لتحكي لي يومياتها..

لأعبر لها عن شوقي لرؤيتها بعد مرور عام من الفراق..

لأخبرها كم أحبها وكم هي عزيزة وغالية...

.....

حين دخلت الإقامة كنت متجهة إلى غرفتها.. لكن فجأة خطر ببالي أن أمر على صديقة أخرى ثم أعود إليها..

ولما هممت بالخروج من غرفة صديقتنا لأتجه لغرفة رزيقة..

خطر لي أن أسألها عن عرس إحداهن

متى كان عرس فلانة؟

كان قبل أربع شهور

ومن كان حاضرا من صديقاتنا؟

" حضرت أنا.. وفلانة .. وفلانة.. وفلانة.. و... رزيقة رحمها الله "..

!!!!!!

ماذا؟ !!!!

(رحمها الله)؟؟ !!!!

ماذا تقصدين بـ رحمها الله؟ !!

قالت: ألم تعلمي أن رزيقة قد ماتت؟ !!!

.....

ماتت؟ !!!!!!!

أتمزحين معي؟

أنا ذاهبة الآن لرؤيتها وأنت تقولين أنها ماتت؟ !!!!

قالت الصديقة بأسف: ماتت منذ شهر... رحمها الله..

دخلتُ في عالم آخر..

ألمّ بي صمت رهيب..

أخذتُ أتأمل أشجار الإقامة.. وطرقها.. وجدرانها.. وكأني أراها لأول مرة..

تَنَكَّرَت البلادُ وَمَنْ عَلَيْهَا... كَأَنَّ أُنَاسَهَا لَيْسُوا بنَاس..

مشيت وأنا تائهة..

رزيقة ماتت؟؟...

ماتت؟؟ !!!!

رزيقة التي طالما صليت معها..

أكلنا مع بعض..

شربنا مع بعض..

ضحكنا مع بعض..

بكينا مع بعض..

تشاجرنا مع بعض..

تصالحنا مع بعض..

درسنا مع بعض..

تأملنا السماء مع بعض..

تلونا كتاب الله مع بعض..

سهرنا الليالي نتناقش مع بعض..

ومشيت بين أروقة الإقامة وساحاتها وبين أشجارها وممراتها أتتبع آثار صديقتي وخطواتها وأسمع صدى كلماتها ورنة ضحكتها.. في كل مكان رأيت خيالها وظل جلبابها يسير بهدوء ووقار بين جموع الطالبات.. جلباب أخضر تعرفه من بين المئات..

وخرجت من الإقامة عائدة بخيبتي إلى محطة الحافلات، فالتي جئت لأزورها قد سبقتني إلى التراب..

لم أستطع أن أذرف دمعة واحدة من هول الصدمة، لم أصدق الخبر أساسا وكان صوت بداخلي ينكر على الموت أن يأخذ صديقتي.. لماذا هي؟ هي بالذات؟ لماذا الآن؟ لماذا ماتت؟ ألن ألقاها بعد الآن؟؟؟

وركبت الحافلة وأنا ذاهلة، وأخرجت هاتفي باحثة عن أنشودة خليجية تتحدث عن صفات الصديق الحقيقي.. أنشودة كثيرا ما كنت أجبر رزيقة على سماعها فقد كانت تكره الأناشيد.. كانت مكتفية بكتاب الله عز وجل زاهدة في كل كلام سواه..

كنت أجبرها على سماع الكلمات وأقول لها.. هذه صفاتك أنت..

وضعت السماعات في أذني وأعدت سماع الأنشودة.. ومع كلماتها الأولى.. بدأت الدموع أخيرا تتهاطل كسيل جارف..

﴿ صديقي الذي إن حضر ما نمله،،

غيابه يضيق علينا الوسيعة،،

شوفه يداوي القلب من كل علة،،

وبعده يضر القلب.. ما نستطيعه،،

له منزل في القلب لا أحد وصل له،،

محبة في الله رب الشريعة،،

لا غاب ما به من يحل بمحله،،

الخلق طيب.. والمكارم رفيعه،،

حل الوداع،، ودموع عيني تهله،،

ودعته وروحه ,, في قلبي وديعة ﴾

مضى الآن على موت رزيقة رحمها الله ستة أعوام .. ماتت عام 2013

..

ومرضتُ بالسرطان بعد وفاتها بعامين ..

غابت صديقتي عن الدنيا وما غاب عني خيالها..

~ ~ ~

هم أحياء في قلوبنا لا يموتون.. أولئك الذين صعدوا إلى السماء بأرواح تحبنا بلا مقابل.. ما غادرونا إلا بأجسادهم.. فقد حق للجسد أن يتحلل في رحم أمه الأولى ويعود إلى اسمه الأول... التراب.

إن هي إلا أيام معدودات.. ثم نلحق بهم.. ماذا يفصلنا عنهم سوى شهيق وزفير ونبض دقيق ودورة دموية تحث الخطا نحو المغيب..

إن هي إلا سنوات.. تمر كأشهر.. تنقضي كأسابيع.. تنصرم كأيام.. تمضي كساعات.. تتقدم بنا كثوان.. تحط بنا في طرفة عين.. على أرض اللقاء..

بين حافر الصبر وناب الموت.. كلمة ينبغي وضعها بدل "شبح" الغياب..

بين الحافر والناب.. " حتمية " الغياب..

كم تراءت لنا قيمة الأشياء حين داهمنا غيابها المفاجئ.. كم أقفر النهار حين احتجبت الشمس بجلباب الغيوم.. كم تلبّس الليل بالعتمة حين اعتكف القمر في يومه الثلاثين وبكت من أجله النجوم..

تلك اللحظة حين علمت أني مصابة..:

وكأن موت صديقتي بسبب السرطان جعلني أهون من تهويلي لهذا المرض وأنظر إليه نظرة فضول، فقد كانت هذه الصديقة الملتزمة قدوة لي في شؤون كثيرة، وكانت أكبر مني بأربعة عشر سنة ، إذ كنت منذ صغري أحب مصاحبة الكبيرات، فحرصت على استشارتها والأخذ بنصائحها، وكثيرا ما راقبتها وهي تصلي في جوف الليل ونحن نائمات.. وكثيرا ما سمعت بكاءها وتضرعها لرب العالمين،، وكنت أطرد بنشاطها كسلي وبعلو همتها فتور همتي.. وبتفاؤلها أحزاني.. لم تخبرني أبدا أنها مصابة بهذا المرض، لم تكن تشتكي، كانت دائمة البسمة راضية مطمئنة، وقفَت ذات يوم عند النافذة ونظرَت طويلا إلى السماء ثم قالت لي وهي تبتسم:.. " اشتقت إلى لقاء الله "..

~ ~

حين قرأت نتائج التحاليل بعد ترجمتها إلى العربية وجدت كلمة غريبة لم أفهمها، فكتبتها في محرك البحث وبدأت أقرأ

" هودجكن : سرطان الغدد اللمفاوية.. "، أوقفت القراءة فجأة وقلت بصوت خافت.. " سرطان "؟ يعني.. " الموت "؟

وشعرت في تلك اللحظة بقشعريرة سرت من أخمص قدمي إلى أعلى رأسي.. اقشعر جلدي بالكامل.. وتسارع خفقان قلبي.. وتذكرت رزيقة رحمها الله..

ونطقت بقلبي ولساني معا:" اللهم أفرغ علي صبرا وتوفني مسلمة "
ثم واصلت القراءة وعرفت كل تفاصيل المرض وأعراضه ونسبة الشفاء منه وقرأت عن العلاج الكيماوي وآثاره ونتائجه، وكأني أقرأ عن مرض أصيب به شخص غيري.. بمجرد أن نطقت بذلك الدعاء هدأ قلبي واطمأنت نفسي وتصاغر شبح السرطان أمام عيني حتى أصبح في منزلة زكام بسيط لا تأبه له الخلائق في الأرض..

ومما زادني صبرا ورضا أنني في تلك الفترة شاهدت على اليوتيوب مقطعا لفضيلة الشيخ أبو إسحاق الحويني وهو يتحدث عن ساقه المبتورة وكيف كان راضيا بقضاء الله وكيف زادت محبته لله عز وجل فكان خير سند معنوي لي عند الصدمة الأولى فجزاه الله عني وعن الإسلام خير الجزاء ..

بداية الرحلة مع العلاج الكيماوي..

في نظرتنا إلى مصطلح الخسارة نكون جائرين بحق الحياة الدنيا.. فهي دوما تفتقر إلى وشم الخلود.. كي يكتمل معنى خسارة شيء فيها..

دوما.. نقرأ أن تحدي شخص ليس لديه ما يخسر.. هو ضرب من الحماقة وتضييع الوقت.. ذلك أن التحدي ينبع من رغبة آثمة في إدخال الحزن على النّدّ الذي نختاره ضحية لعنفوان الانتصار بداخل نفوسنا

شيء ما.. يشبه عقدة الشعور بالنقص.. ينتاب شخصا يرمقك بنظرة سخرية اعتقادا منه أنك قد انهزمت..

من أجل ذلك.. قرأنا أن المنهزم إن ابتسم.. فقد المنتصر لذة النصر..

~ ~ ~

للوهلة الأولى، يبدو السرطان عدوا جبارا يشهر في وجهك خلاياه الفتاكة ليهدد بها حياتك وطموحاتك وآمالك ومشاريعك وأحلامك، يرمقك باستهزاء لتشعر أنك قد انتهيت.. وأن حياتك لم يعد لها أي معنى..

لكن ليس له سلطان على نفس مؤمنة كنفسك أيها المصاب، نفس تدرك أن لكل أجل كتابا، وتدرك أنه عندما تحين ساعة الموت فكل مرض يصبح قاتلا حتى لو كان زكاما بسيطا، وعندما لا يحين الأجل، فإن كل مرض بسيط حتى لو كان حضرة جناب السرطان..

حين بقي على الجلسة الأولى مع الكيماوي أسبوع واحد، ذهبت إلى المستشفى لإجراء التحاليل المطلوبة قبل العلاج، وبينما كانت

الممرضة تملأ حقنتها من دمي، مرت بنا طبيبة نفسية تلقي التحية على الممرضة وتسألها عن المرضى الجدد وتقرأ عنوان ورقة التحاليل التي تخصني.. " مركز مكافحة السرطان "..

فنظرت إلي متفحصة وعلى ملامحها شفقة لم تستطع إخفاءها، ثم أمسكت بيدي وسألتني كم مضى من عمري.. فأجبتها:ست وعشرون سنة..، وقرأت في عيونها عبارات التأسف والحسرة التي سرعان ما نطق بها لسانها: لا تخافي سوف تشفين إن شاء الله.. هذا المرض له علاج ولم يعد خطيرا مثلما كان في الماضي.. فقط اصبري على العلاج وكوني قوية.. ستعيشين وتحققين أحلامك وتنجحين في حياتك وتتزوجين وتُكَونين أسرة..... "

وواصلت حديثها وأنا أتساءل بيني وبين نفسي: مع من تتحدث هذه؟ هل تقصدني أنا؟ ولماذا تبدو حزينة وكأن المرض أصابها قبل أن يصيبني؟

وعند هذا الخاطر لم أتمالك نفسي فضحكت على تساؤلي، وشكرتها على كلامها الطيب وتشجيعها لي، ولم أشأ إخبارها أني لا أعتبر نفسي معنية به، بل إني لا أشعر أني مصابة بالسرطان أساسا، لكي لا يطول النقاش بيننا وغادرتُ المستشفى على عجل..

هل كنت أهرب من هذه الحقيقة أم كنت فعلا غير آبهة لهذا المرض؟ لا أدري ماذا كان يحدث داخل جهازي اللمفاوي، لكن كنت هادئة ومطمئنة إلى درجة اللامبالاة.. بل إلى درجة النسيان.. كنت أنسى أني مريضة إلا عندما أتحسس الأورام الكبيرة في رقبتي.. وحتى عندما

ألمسها بيدي لم أكن مقتنعة أنها أورامي أنا.. أنها تنتشر تحت جلدي، كانت أكبرها حجما كأنها بيضة، قاسية كالحجر، يراها أهلي فيبكون، وأراها في المرآة فأبتسم وأتساءل.. " ترى ماذا يوجد بداخل هذه البيضة "؟

حان موعد الحصة الأولى، وجاءتني الممرضات بأكياس الكيماوي، أحد الأكياس به سائل لونه أحمر، والباقي شفافة تبدو كالماء، وعلى كل كيس كتبوا إسم نوع الدواء، ثم أتبعوها بأكياس كثيرة تحمل السيروم المالحوالسيروم الحلو.. هكذا تعرفت عليها..

ونظرت إلى المريضات من حولي.. هذه مستسلمة تغط في نوم عميق وتلك تنظر إلى النافذة تائهة في سفر بعيد إلى عالمها الخاص، وأخرى تتقيأ بين الحين والآخر، والتي بجانبها تبدو متذمرة منها، وتلك عجوز تنظر إلي وأقرأ على ملامحها رغبة في فتح حوار معي، وهذه فتاة صغيرة لم تتعدى السنتين أو الثلاث تصرخ من ألم الإبرة وتحاول الهرب من الممرضة ، ولم تلبث العجوز كثيرا حتى غلبها فضولها لتسألني كم عمري ومن أي مكان أتيت وكيف مرضت وما نوع مرضي، وتتحسر بين كلماتها على شبابي الذي ضاع أو سيضيع بسبب هذه الخلايا الخبيثة، وتقول : " نحن على الأقل كبار إن رحلنا فقد عشنا مديدا وأنتم مازلتم صغارا يا بنيتي... "

وتركتها تواصل حديثها واستسلمت رغم أنفي لخاطر أخذ يسبح جيئة وذهابا في ذهني.. ما معنى الحياة؟.. وأي شيء فيها يستحق منا

أن نلهث وراءه ونحزن من أجله؟.. هل على هذه الأرض ما يستحق الحياة؟

وتذكرت صديقتي وأيامي معها، وتذكرت أيامي في معهد الشريعة، تذكرتُ معلمي و أساتذتي الأفاضل، ومكتبة الكلية، ومكتبتي الصغيرة في البيت، وأمي وأخواتي وأهلي وكل من يقلقه أمري ويريد أن أشفى..

وتذكرت مكة.. مكة التي تكاد تصبح في عيون الفقراء حلما شبه مستحيل..

مكة التي حلمت ومازلت أحلم بها،، ألا تستحق الحياة من أجل الوصول إليها؟

على هذه الأرض ما يستحق الحياة.. أو.. الرغبة في الحياة..

قرأتُ ذات مراهقة أثرا يقول:" لولا ثلاث لأحببت فراق الدنيا.. من بين الثلاث مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقون أطايب الثمر "..

وقد عرفتُ أقواما ينتقون أطايب الفعال كما ينتقون أطايب الكلام..

ويتخيرون من أطايب الفعال أكثرها إحسانا.. أكثرها حمدا.. أكثرها استقامة وورعا..

كم من خيار أمام أحدنا لينتهج لنفسه صراطا مستقيما.. في تعامله مع ذاته ومع الخلق.. كم كلمة كان بإمكانه قولها.. وكان لو قالها لأتاه منها خير وتوفيق كثير.. كم فعلا.. كم حركة.. كم هما.. كم خاطرا.. كم خطوة..

كم نطقت ألسن بهذا السؤال: أمسيرون نحن أم مخيرون؟

وكم كان ينبغي لها أن تسأل:أكنا صائبين في اختياراتنا؟.. أما كان يسعنا قول "نعم" بدل "لا".. أو قول "لا" بدل "نعم"...؟

أشم في هذا السؤال رائحة هروب من سوط الضمير:" أمسيرون نحن أم مخيرون "

كأني بالسائل يبحث في كلمة " مسير" عن حجة يبرر بها فعاله السيئة.. كأني به يقول:.. مادمتُ مسيرا فلا لوم علي في فعال ارتكبتها

دون إرادة.. أو قامت بارتكابها إرادة فوق إرادتي ثم قامت بتلبيسي تهمة الخطيئة..

كأني به يبحث في كلمة " مخير" عن حجة فلسفية يتشدق بها قائلا: " ما دام مسموحا لي باختيار فعالي فلا معنى لمحاسبتي على أخطائي.. فقد مُنحتُ الحرية في ارتكابها.. ومن الخديعة أن أُلام على ما أنا فيه مخير بعلم الجهة التي منحتني الخيار... "

جدير بالعاقل الكف عن هذا التساؤل الذي أورثنا جدالا عقيما.. إن الحياة أقصر من اختزالها في كسر يتشاجر طرفاه بغباء.. بين بسطٍ يصر على أنك مُسَيّر ومقامٍ يصر على كونك مخيرا..

على هذه الأرض ما يستحق الحياة.. مادام خرير المعاني مصراً على الدفاع عن صوته.. معاني الإنسانية.. والأخوة.. والسلام.. والمحبة.. والبُنُوّة.. والأبوة..

الأبوة...

كانت خولة رحمها الله شريكتي في الغرفة بالمستشفى، فتاة في العشرين مصابة بنفس النوع الذي أصابني لكنه في الدرجة الرابعة، كانت أورامها عنيدة أمام الكيماوي، وعانت كثيرا قبل أن تموت، لكن البسمة لم تكن تفارقها، وكان والدها يزورها دائما ويلبي لها طلباتها، وفي إحدى الزيارات سمعتها تشكره ويرد عليها قائلا: " العفو يا بنتي " لست أدري في أي جهة بالضبط شعرت بذلك الألم المفاجئ، وأنا أكرر جملة الأب بعد انصرافه.. " العفو يا بنتي "، والفتاة تنظر إلي مستغربة كلامي، وتسألني: هل أبوك ميت؟

~ ~

الحديث بنبرة اليتم صعب.. يثير العبرات في أفئدة اليتامى.. المليئة تصدعا وانكسارا.. المليئة حنينا إلى الأمان والسند.. والقوة والسكينة..

المليئة قوة مصطنعة تواجه بها ضعف اليتم وقهره..

أبي..

كم مخرج حرف بين الألف والباء..

مسافة بين الحلق والشفتين.. تخرج بقية الحروف من مملكة الأبجدية لتركنها جانبا..

وتبقي الهيبة لسلطان الأبوة..

هيبة لن ينالها أخ ولا زوج ولا عم ولا خال..

لدي آباء كثر..

من الأنبياء إلى الصحابة إلى التابعين إلى كل سلف صالح..

أولئك آبائي عرفتهم بورقة وحبر..

لكنهم لا يعرفونني..

بين الدموع وبقية مخارج الحروف عشرات الحواجز التمثيلية.. من قوة وصبر.. واستغناء..

غير أنها أمام مسافة الأبوة بين مخرج الألف ومخرج الباء..

تنهمر الآن بصمت..

عاجزة كل العجز..

عن الإمساك بزمام المعاني.. وتقييدها بالكلمات والجُمَل..

ما كنت أدري أنني سأذرف العبَرات وأنا أتحدث عن الأبوة..

ما كنت أدري أن مخزون اللغة سيخونني..

ظننتُ أني سأتكلم كثيرا.. سيتخطى خطابي عشرين يوما..

ظننت أنني أمام معنى الأبوة سأطلق العنان لأحرفي المكبوتة..

فإذا بي أزيدها كبتا على كبت..

لست أدري لماذا لم أشعر بمرارة اليتم إلا بعد سن العشرين..

أين كان الحنين إلى الأبوة قبل هذه السنين..

الأبوة نعمة..

نعمة.. تستحق أن أمحو بها ذلك الوشم المشوه لوجه الحياة في قلبي..

على هذه الأرض ما يستحق الحياة.. ما يستحق الرغبة في الحياة..

مادام أشباه آبائي على قيد الحياة..

بل.. على حرية الحياة..

معلمي وأئمتي وعلماء هذه الأمة وشيوخي.. أولئك آبائي..

فأمثالهم من يكسرون قيود الحياة الدنيا بنفحات من دار القرار..

أمثالهم.. من نرى في ظلالهم.. ونسمع في نبراتهم..

خرير سواقي الجنة..

حفيف أوراقها..

تغريد أطيارها..

تسبيح ملائكتها..

سلام أهلها وحمدهم لرب العالمين..

~ ~

حينما لا نجد شيئا نقدمه لمن مات فجأة.. سوى الكلمات بعد الدعاء.

وماتت خولة.. تلك الرفيقة المتفائلة..

درست العلوم الإسلامية.. متجلببة.. منتقبة ..

حريصة على صلاتها ..

حريصة على نقابها ..

مقبلة على الحياة بشغف ..

فرحة بخطوبتها وتستعد للزواج ..

كان مرضها في الدرجة الرابعة ..

ومرضي في الدرجة الثانية ..

كانت أورامها عنيدة أمام الكيماوي.. تنتشر بصلابة وخبث في جسدها ..

وكانت أورامي مطواعة تحث طريقها نحو التلاشي ..

كانت تحب الحياة.. وأكره الحياة ..

أرادت أن تشفى ..

وأردت أن أموت ..

فماتت التي أرادت الحياة ..

وعاشت التي أرادت الموت ..

كانت تحفظ جميع أسماء الأدوية وأنواع الكيماوي ..

وكنت أجهل حتى نوع " السيروم " الذي يسري مع العلاج أملح هو أم سكر..

كانت في قمة الاهتمام بمرضها ..

وكنت في قمة اللامبالاة ..

كانت أحيانا تفقد الصبر أمام آلام العلاج فتصرخ باكية.. فأخفف عنها وأشجعها وأصبرها ..

وحين يحين دوري ليستبد بي الألم كانت تنصت إلى أنيني الخافت وتقول ..

﴿ أعلم أنك تتألمين..ابقي قوية.. أنا أستمد منك الصبر والقوة ..﴾

كانت تتحدث كثيرا عن آمالها.. أحلامها.. تخطيطاتها للحياة الزوجية.. بيتها.. أغراضها.. تضحك كثيرا.. تنكت.. تثرثر..

تشاكس.. تشاغب.. ولو استطاعت القفز لقفزت ولعبت ..

دفنوها في العشر الأواخر من رمضان.. ..

إلى آخر لحظة كانت متمسكة بالأمل ..

إلى آخر لحظة.. كانت تريد الحياة ..

وإلى آخر لحظة.. كانت ..

كانت ..

تبتسم ..

...

أدعوا لها ولرزيقة بالرحمة ..

الموت..
ذاك العدو الذي أصبح صديقا..:

لن أدّعي بأن تلك القوة النفسية في مواجهة المرض وآلام العلاج كانت ثابتة في أعلى درجاتها، فكثيرا ما كنت أضعف وأبكي، وكثيرا ما كنت أدخل في حالة جمود لا أشعر بما يدور من حولي، أسمع أنين المرضى وصراخ بعضهم وأسمع أن فلانا قد مات، وفتاة صغيرة لم تتجاوز العامين قد ماتت أيضا...فتسوَدّ الحياة في عيني وأشعر بمقت شديد للدنيا ورغبة قوية في الرحيل، رغم أن جسمي كان يستجيب للعلاج بشكل جيد واختفت تلك البيضة مع صغيراتها وتلاشين تماما من حول رقبتي، لكن العلاج الكيماوي يطلب مقابلا لكي يقضي على خلاياك المصابة، إنه لن يقضي عليها إلا بجعلك أصلعا كأخف وأبسط أثر مبدئي، ثم يحرق أنسجة فمك وحلقك لتشعر بلهيب كلما حاولت ابتلاع قطرة ماء،ويجعل عظامك هشة ويهاجم مناعتك ويضعفها ويجعلك تكره سماع سيرة الطعام قبل وصوله إليك، وتدخل في إضراب لاإرادي عن الأكل، ولن تبتلع لقمة إلا تحت رقابة وإصرار أهلك، وتصاب بالإمساك بسبب قلة شرب الماء، ولا داعي لذكر الأمراض التي يسببها الإمساك،والتي أدخلتني مستشفى منطقتنا لثمانية أيام، كنت أصرخ كل ليلة من شدة الألم، والكل كان يظن أني في أيامي الأخيرة، وأن ساعاتي أصبحت معدودة، وأختي جالسة عند

رأسي تبكي، أختي الكبرى فريدة، أمي بعد أمي، ما ذرفتاه من دموع خوفا علي لم يذرفه أحد مثلهما ، ولا قبلهما، ولا بعدهما ..

كل ذلك وغيره لم يكن ليزعزع منطقة الأمان بداخلي، حتى في لحظات الضعف والبكاء، كانت تلك المنطقة في أعماق نفسي هادئة راضية مطمئنة، هل يمكن أن أسميه صبرا؟ هل استجاب الله لدعائي وأفرغ على قلبي صبرا؟

وبقدر ما كنت أتألم من آثار العلاج، كنت أقرب حبا للموت وتقبلا له، كانت نسبة شفائي مضمونة تماما كما قرأت من قبل وكما قال الأطباء، برغم ذلك شعرت برغبة في الانتقال إلى الدار الآخرة لألتقي أبي وألتقي بصديقتي ، ليس فقط لألقاهما، بل لأن الآخرة تزينت في نظري وبدت كأنها قطرة ماء عثرعليها ظمآن تائه في صحراء منسية حين يرتبط مصيرنا بقطرة ماء نجدها بعد عناء كبير.. ماذا تساوي الدنيا بأسرها أمام هذه القطرة؟

وشعرت فعليا أنني في الدنيا مجرد ضيفة لا مكان لي فيها مهما طال بها مكثي..

وأصبح الموت بمنزلة الصديق..

~ ~ ~

وأخذت أتساءل:

لماذا لا نقيم مع الموت علاقة صداقة.. لماذا لا نتصالح معه ونقابله حين يأتي بابتسامة وُد.. هو في الأخير عتبة نجتازها إلى حياة أخرى.. لو كان النهاية لاستحق كل هذا العداء.. تبًّا لمرض نكران الجميل الذي يعشش في نفوسنا الغافلة..

كان حريّأ بنا أن نشكر الموت على خدمة توصيلنا إلى دارنا الحقيقية..

كان حريا أن نهتف مع الشاعر:

جَزَى اللهُ عَنَّا الْمَوْتَ خَيْرًا فَإِنَّهُ... أَبَرُّ بِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَرْأَفُ

يُعَجِّلُ تَخْلِيصَ النُّفُوسِ مِنَ الأذَى... وَيُدْنِي مِنَ الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ

وتذكرت بكائي على صديقتي، وعدت لأسأل نفسي

" أتبكينها أم تبكين أيامكِ معها؟؟.. ".

ثمة كلمات من فرط واقعيتها تكاد تصبح خرافة في عقولنا الباطنة..

حين نجد أنفسنا فجأة في مواجهتها..

نؤمن بحتمية الموت فقط حين يموت شخص لا يعنينا أمره..

عدا ذلك نتساءل تحت تأثير الصدمة: " كيف مات؟.. لماذا فلان بالذات؟.. هل مات حقا؟.. إذن دورنا قريب "

من الذي نرثيه حين نسمع بالموت؟..

من الذي نحزن عليه؟

في الغالب نحن نرثي أيامنا مع الميت..على قدر أهمية تلك الأوقات التي قضيناها معه يكون حزننا أكبر..

نحن لا نرثي الميت.. لو كان كل حي يحزن لفراق ميت لبكاه طول العمر..

لماذا تجف الدموع تدريجيا بمجرد مرور فترة زمنية على وفاة أحد؟

ذلك أننا نؤقلم أيامنا على المضي من دونه..

ذلك أننا في الأخير أوفياء لأنفسنا وما تعودت عليه..

حقيقة غريبة.. قد لا تقنع البعض.. لكن بشيء من التأمل العميق

ندرك: لا رثاء لميت..بل رثاء لأيامنا معه.

المرضى الذين خففت عنهم
ثم بعد ذلك هربت..

رغم تفاوت أنواع ودرجات السرطان بين المرضى، ورغم اختلاف انفعالاتهم بين البكاء والصمت والأنين والصراخ والصبر، إلا أن حالة من السكون والأمل تكاد تكون غالبة عليهم جميعا أو على أكثرهم، ربما لأنهم وجدوا السلوى في عموم البلوى، فمهما كانت أوجاعك كبيرة فأنت لست وحدك من يعاني، بل إن من المرضى من حاله أخطر من حالك ووضعك بالنسبة له أهون وأرحم ..

وكثيرا ما استصغرت مرضي وآلامي أمام أولئك المرضى الميئوس منهم بلغة الأطباء، وأولئك المعزولون الذين أصبحت مناعتهم تساوي صفر، وأدق جرثوم قد يقضي عليهم في ثانية..

بعضهم مر بذاكرتي من دون أثر يذكر، والبعض ترك في نفسي أثرا كبيرا لا أنساه بسهولة، تعددت الآثار حسب شخصية كل مريض، فلن أنسى فاطمة رحمها الله .. تلك الفتاة العشرينية التي فقدت أعصابها ذات يوم بسبب طول فترة العلاج وانهارت باكية، حاولت التخفيف عنها وذكرتها بالصبر وأن لها أجرا إن كانت من الصابرين، فردت علي بعصبية قائلة: " شبعت من الأجر والحسنات.. لا أريد حسنات..يكفي.. يكفي ألما أريد أن أرتاح "،

استفزتني كلماتها رغم إدراكي للألم الكبير الذي يغزو الآن كل خلية في جسمها ولم أستطع إخفاء نبرة الغضب في صوتي وأنا أقول لها:

وافترضي أنك شفيت وعشت أربعين سنة أخرى؟ وماذا بعد؟ ألن تموتي في الأخير؟ وما الفرق إن كنت ستموتين الآن أو بعد أربعين عاما إضافية؟ أتخسرين الجنة بسبب بضع كلمات؟ استغفري الله فقلت قلت قولا عظيما..

وهدأت الفتاة لحسن الحظ وسمعتها تستغفر وتبكي بهدوء.. وما لبثت أن انتقلت إلى دار القرار.. رحمها الله برحمته الواسعة ..

وفي إحدى الجلسات لاحظت حالة استنفار وتوتر بين الممرضات فسألت إحداهن ما الأمر، فقالت إن شابا مريضا يرفض تلقي العلاج ويحاول الهرب من المركز، وكنت قد أنهيت جلستي وخرجت من القاعة الخاصة بالنساء أمشي بثقل وصعوبة في الرواق ولا أكاد أميز طريقي بسبب الدوار، ففوجئت بذلك المريض خارجا من قاعة الرجال مصمما على الهرب، ولست أدري من أين واتتني الجرأة لأقف في طريقه وأقول له :كلنا مرضى يا أخي ونتلقى العلاج فلماذا لا تصبر مثلنا وتنتظر الشفاء من الله؟

ألقيت إليه بعبارتي وخرجت، وفي الغد قيل لي أنه عاد إلى القاعة وهدأت أعصابه بحمد الله ..

كنت صابرة قوية طيلة الحصص الخمس، وقد كان برنامج العلاج يقتضي أن أخضع لست حصص أو ست جلسات علاجية مركزة ، وبين كل حصة وأخرى ثلاث أسابيع، فلما أن حان موعد الحصة السادسة والأخيرة أتيت إلى المركز مثقلة متعكرة المزاج ومتعبة ، وحاولت الممرضة غرز الحقنة في ذراعي فلم تفلح في المرة الأولى وبدأت

أتذمر،ثم بعد محاولتها الفاشلة للمرة الثالثة طفح الكيل وراودني نفس شعور الفتاة والشاب اللذان خففت عنهما من قبل، فحملت حقيبتي وغادرت المستشفى وقد قررت ألا أعود إليه أبدا ..

وثارت زوبعة في المستشفى وزوبعة في البيت بسبب هروبي، فقد اضطر الأطباء إلى رمي كل أكياس الكيماوي المخصصة لي بعد مرور ثمانية ساعات على عدم استعمالها وخسر المستشفى بذلك جرعة ضاعت هباء، وقلق أهلي وعبثا حاولوا إقناعي بالعودة لتلقي العلاج لكنني كنت صماء كالصخر وقد كاد ينفد كل ما تبقى لي من ذخيرة الصبر..

ثم في مساء ذلك اليوم اتصلت بي الطبيبة المسؤولة عني وشيئا فشيئا أقنعتني بهدوء أن أعود في الغد وبالفعل عدت واستكملت العلاج رغم أنفي ..

~ ~ ~

كنت أرى كثيرا من المرضى يقرأون القرآن أو يستمعون إليه في هواتفهم، وكان بعضهم يعترف بأنه لم يكن يسمع القرآن من قبل، ولما أن مرض لم يجد أنفع له ولا أهدأ لروحه من كتاب الله عز وجل لم أشاهد مريضا ولا مريضة يسمع الموسيقى والغناء من أجل أن تهدأ أعصابه وترتاح نفسه

الكل متشبث بالقرآن.. الكل يعرف الحقيقة الآن..

لا مكان للغناء في قلب انكشف له الغطاء وعرف حقيقة الحياة الدنيا..

كم سنة ضوئية.. بين أوتار تهتز بألحان الغناء.. وأوتار تزلزل الأفئدة بآيِ الكتاب.. كم نفسا تستصغر هذه وتبجل تلك.. كم قلبا يقسو بسبب الأولى.. ويلين بسبب الآخرة..

كم تداهمنا الرهبة حين نرى هالة النور على حامل القرآن في قلبه..

وكم نرى السخف والبلادة رأي العين على من ملأ جوفه غناء وعبثا

كم صدق بن القيم رحمه الله حين قال :

حُبُّ الْكِتاَبِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا... فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

تحت كل محنة..
بشرى وخير ومنحة..:

لا يعلم الإنسان من أين يمكن للخير أن يأتيه.. ترى نفسك في كل يوم ساعيا في شؤون تعتقد أنك ستجني من ورائها شيئا يهدئ نفسك التي بين جنبيك... والأمر الذي يكاد يتفق عليه معظم ذوي الخبرة من البشر.. هو أن الخير غالبا.. يأتينا من حيث لا نحتسب.. وبطرق ما كانت لتخطر لنا على بال... وعلى أيدي أناس.. ما توقعنا يوما أنه سيأتينا من جهتهم خير..

وأن الشر أحيانا.. يأتينا من تلك الطرق التي نسلكها بأنفسنا.. ظانين أنه سيأتينا من ورائها خير وسعادة.. ويأتينا من أولئك الذين قصدناهم بخطى واثقة.. معتقدين أن خلاصنا بأيديهم..

لعل الطريقة من بدايتها خطأ.. وربما باطل.. وما بني على باطل فهو باطل.. وما كان للقاعدة أن تكون قوية مادام أساسها مهترئا..

أو.. لعل الطريقة صحيحة إلا أن وقت تنفيذها غير مناسب.. فأثر خطأ اختيار الوقت على صحة الطريقة فنتج عنها سوء فهم..

أو لعل الأمر من الأساس غير ضروري... والاهتمام به هو الخطأ في حد ذاته..

غير أن ضعف الإنسان وعجلته التي جبل عليها وحرصه على تهدئة نفسه وإرضائها، أمور جعلته يقع في الكثير من الأخطاء التي يعض أصابعه ندما على مجرد تفكيره فيها لأول وهلة..

على المرء إعادة التفكير في نظرته إلى الحياة ووزنه للأمور..
عليه _ مادام مسلما _ وضع الحسابات الأخروية نصب عينيه ..
فالغفلة عن هذه الحسابات سبب خساراته التي لا يجد لها تفسيرا واضحا..
لا يمكنه تجاهل صوت الضمير في قلبه.. لا يمكنه الهرب من تلك الفروق الواضحة.. بين فعل يخدم الدنيا مقابل خسارة منزلة في الآخرة.. وبين فعل يخدم الآخرة مقابل صبرٍ على فتن الحياة الدنيا

~ ~ ~

عندما أرغب في الحديث عن الجانب المشرق من مرض السرطان، وأحاول التعبير عن الخفايا الوجدانية في الخلايا السرطانية أجد صعوبة في ترتيب الأفكار وصعوبة في إخراجها بأسلوب يليق بها ..
فلو لم يكن في السرطان من فائدة سوى أنه يكشف لك أيها الإنسان كم أنت ضعيف وكم أنت محتاج لربك فقير إليه لكفى بها فائدة عظيمة تغنيك طيلة عمرك عن الدنيا وما فيها وتجعلك عزيزا بحب الله فخورا بدينك مشتاقا لوجه الكريم المتعال..
ومن دون هذه الحقيقة لن يقر لك في الأرض قرار، وستعيش فيها ضيقا حرجا متكدرا مغموما ضائعا حائرا لا تعرف لك وجهة مأمونة ولا سبيلا مستقيما ..
حقيقة أنك ضعيف أيها الإنسان، وأن خلية عابرة لا ترى بالعين المجردة بإمكانها إخراجك من قصرك رغم أنفك ورميك على سرير في

مستشفى تتلقفك أيدي الأطباء والممرضين وأنت مستسلم لهم لا حول لك ولا قوة..

حقيقة أنك عبد للقوي العزيز، الله الذي رفع السماوات ومهد الأرض وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار الخافض الرافع المعز المذل ..

حقيقة أن الطبيب ودواءه لن يشفياك إلا بإذن الله، ولو اجتمع أطباء الأرض وأدويتهم على علاجك فإنك لن تشفى إلا بإذن الله وأمره ..

من أجل ذلك لم أكن معتمدة على الأطباء بشكل كلي وإنما كنت أتتبع نصائحهم أخذا بالأسباب وفي قلبي يقين راسخ بأن الله الذي خلقني هو يهدين، وإذا مرضت فهو يشفين، فهذه الخلايا من خلق الله، وكما ظهرت بأمر الله فستزول بأمر الله.. رفعت الأقلام وجفت الصحف.

ومن الخبايا الإيمانية في هذا المرض أنه يجعلك تتذكر محن الأنبياء وخاصة مرض أيوب عليه السلام وكيف كان صابرا راضيا بقضاء الله وكيف كان يدعو ربه ويتضرع إليه، وتتذكر دعاءه وتردده معه قائلا: " رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين "، تحس للحظات أنك تشارك نبيا من أنبياء الله في بلائه وألمه، وتقتدي به في توكله على الله عز وجل، فتجد لذة في المناجاة ولذة في الصلاة، تلك الركعات والسجدات التي تؤديها وأنت متعب ضعيف لا تقوى على الوقوف.. تشعر بالصدق في دعائك، وتشعر أنك تصلي لله بخشوع وبنفس متجردة من كل شواغل الحياة الدنيا، ستسأل الله الشفاء.. وإن بلغ

بك اليقين مبلغا رفيعا ستنسى نفسك ومرضك ومعاناتك وألمك وستسأل الله أن يغفر لك ويرضى عنك ويجعل آلامك مكفرات لذنوبك..

سترى حقيقة الحياة الدنيا، وستتذكر تقصيرك وخطاياك ودينك الذي فرطت فيه، وسترى الصحة تاجا على رؤوس الأصحاء خاصة حينما تحتاجها لتعبد الله وتخدم نفسك بنفسك وتستغني عن منن الخلق مهما أبدوا سرورهم بمساعدتك، لأن شعورا بأنك عالة عليهم سيلازمك طيلة أيام عجزك، فتتمنى العافية لتتخلص من ذلك الشعور البغيض..

ذلك أن الحاجة للناس تورث ألما نفسيا لا يطاق، سوف تشعر بذوي الاحتياجات الخاصة وأنت نائم على السرير لا تتحرك إلا بجهد وعناء.. سوف تشعر بآلامهم وتفهم إحساسهم تماما، وستكره نظرات الشفقة وتفهم لماذا يكرهونها، وستحاول أن تبدو بخير وسعيدا وراضيا وستفهم لماذا يبدون كذلك، وستحترمهم أكثر عندما تجرب شيئا من أحوالهم وأنت تعلم أنه مؤقت بالنسبة لك.. ستتمنى لو أنك تمتلك عصا سحرية كتلك التي في الرسوم المتحركة ما أن توجهها لمُقعد حتى يقوم ماشيا على قدميه.. ولأنك لا تملك من أمرك ولا من أمرهم شيئا ستكتفي لنفسك ولهم بالدعاء.. ستكون أكثر إنسانية.. ستكون أكثر رحمة..

السرطان..

ذلك الاختبار الذي يُسقط الأقنعة..:

المرض كغيره من أنواع البلاء في الحياة الدنيا، يأتي مختبرا للقناع الذي ترتديه أيها الإنسان، يختبر قناعك ابتداء ثم يجعلك تشاهد بنفسك سقوط الأقنعة عن وجوه المحيطين بك، فإما أن يتجلى لك صدقهم أو نفاقهم، وستتفاجأ كثيرا مما ستراه، وقد تتألم من وقع الصدمة، وقد لن تبالي، أنت وشخصيتك وقلبك..

~ ~ ~

في إحدى الجلسات كانت برفقتي فتاتان وكلتاهما مخطوبتان، غير أن إحداهما تركها خاطبها، والأخرى بقي متشبثا بها، سقط قناع الخاطب الأول عندما عرف بمرض خطيبته ،وسرعان ما فسخ الخطوبة وتركها تعاني مع ألم المرض ألم الخذلان، وسقط قناع الخاطب الثاني ليكشف عن رجل شهم أصر على الوقوف بجانب خطيبته إلى آخر لحظة حتى لو كان السرطان قاتلها

الغريب في الأمر أيها القراء.. أن التي تركها خاطبها كان نوع سرطانها بسيطا ونسبة الشفاء منه تقارب المئة، وأما التي بقي خاطبها بجانبها وساندها كان نوع سرطانها خطيرا ونسبة الشفاء منه تكاد تنعدم..

فماذا حدث بعد ذلك؟

إن الحالة النفسية الجيدة تساهم بشكل كبير في تفاعل الجسم مع الكيماوي وتقبله له وسرعة ذوبان الخلايا السرطانية، فبسبب سوء

الحالة النفسية للفتاة الأولى بعدأن تركها خاطبها تفاعل الجسم سلبا مع العلاج وتضاءلت نسبة الشفاء بعد أن كانت كبيرة، وحدث العكس بالنسبة للفتاة الثانية، إذ كانت حالتها النفسية ممتازة بعد موقف خاطبها الإيجابي ولاحظ الأطباء تطورا جيدا في حالتها الصحية

وكذلك كنت أشاهد وأسمع قصص المرضى وتنوعها واختلافها وتناقضها، في نفس القاعة وعلى سريرين متجاورين تجلس ثلاث نساء، على السرير الأول عجوز جالسة عند قدمي كنتها، ووالله من حسن تعاملها معها وحرصها عليها ظننا أنها ابنتها

وفي السرير الثاني شابة ترقد وحيدة مهمومة.. لماذا؟، لأن أم زوجها تعاملها معاملة سيئة ولا تقدر ظرف مرضها وتطالبها بأعمال البيت..

تسقط الأقنعة عن وجوه فتتجلى الرحمة في أسمى معانيها.. وتسقط عن وجوه أخرى فتنكشف نفوس قاسية كالحجارة أو أشد قسوة..

وإني أفضل ألا أفصح عما شاهدته في وجوه المقربين بعد مرضي.. لكن يكفي القول بأن القليل من المقربين والكثير من الغرباء والأباعد كانوا لي سندا وعونا منذ لحظة اكتشاف الورم إلى لحظة الشفاء.. بل إلى هذه اللحظة..

فحين تبتلى بمرض أو فقر أو مشاكل أو أي بلاء يكدر صفو حياتك فانظر إلى جوانبه الإيجابية وتذكر قوله تعالى:

" لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم "

سترى رأي العين حقيقتهم، وستكتشف قيمتك في قلوبهم.. وستعرف من بكى.. ممن تباكى.

أدب وُلد من رَحم الكرب:

هي كلمات كتبتها خلال هذه السنة التي قضيتها مع السرطان، كنت أنشرها في حسابي القديم على الفيسبوك واقترح علي الكثير من المتابعين أن أجمعها في كتاب وأنشرها، ولأن عددها ليس بالقدر الكافي لكي أفرد لها كتابا مستقلا، فقد ارتأيت نشرها ضمن الخبايا الإيمانية، لأن الكرب أنطقها، ولأن الأدب الصادق شحيح في زمن الدجل، وجدتني أكتبها بصدق وأنا أتألم، فأتمنى أن تجد فيها أيها القارئ ولو كلمة واحدة تنفعك، وبانتفاعك لا بد أني سأنتفع.. والله يتولى السرائر:

~ ~ ~

يا من يرى أن حظه عاثر:

ليس لديك ما تخسره في الدنيا سوى لحظات عمرك إن قضيتها في الصغائر

وقل للذي ظلمك ستلقى غبنك يوم تبلى السرائر

~ ~

وكن بربك واثق:

وليس غير ربك أعلم بالحقائق..

فلن يحزنك الذي يراك كاذبا ولا سيسعدك من رآك صادق..

~ ~

على سبيل السمو:

اعلم:

أنه كلما زاد حبك لله عز وجل ارتفعت معدلات القوة في نفسك

فتتكون لديك مناعة روحية ضد سفاسف الأمور

ولن يستطيع مخلوق على وجه الأرض أن ينزلك من علياء عزك.

~ ~

"ربكم أعلم بما في نفوسكم" :

افعل ما شئت..

وتظاهر بما شئت..

وقل ما شئت..

وصرح بما شئت..

واكتم ما شئت..

واظهر أين شئت..

واختف متى شئت..

أنت مكشوف:

"ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا "

~ ~

وفي كل الوصايا:

ودواوين الأدب:

لا تهِن أمام البلايا..

ولئن خدشتَ نفسك بأشواك الخطايا..

فداوِ جراحك بترياق السجايا..

وإن قالوا فيك شرا ف:

"إن الله يدافع عن الذين آمنوا "

وإن آلمتك المحن:

"سيجعل الله بعد عسر يسرا "

~ ~

على سبيل النقاء ..

للكائنات الهادئة ..

للهادئين ..

أولئك الذين يلبسون حلة وقار مجانية تلمع كلما ذُكرَت أسماؤهم

أحب الهادئين ..

أمام صخب الحياة يتنفسون بعمق ..

كل شهيق بفكرة.. كل زفير بحكمة ..

أحب الهادئين.. في حديثهم ونظراتهم وصمتهم وسيرهم مع تقلبات الحياة ..

حتى إن ضجوا.. اكتسحني ضجيجهم بهدوء ..

عكس الأعاصير يثورون بسكون ..

بنظرة واحدة يربون ويؤدبون ..

أمام هيبة صمتهم تخرس الكلمات ..

أحب الهادئين في قراراتهم ..

يختمونها بربع ابتسامة واثقة لا ترى فيها ترددا ولا خوفا ..

ألا.. هدوءً أيها الضجيج في الملامح والخطوات والنبرات..

كم يضر الصاخب نفسه.. كم يضر من حوله ..

ألا.. لله در الهادئين بأمنهم ..

أراحوا نفوسهم وارتاحت الأنفس من حولهم ..

إليك أيتها الكائنات الهادئة :ودي.. وسلامي ...

واحترامي .

~ ~

فلسفة في المستشفى:

السعادة:

كنت أتحدث مع إحدى الصديقات

وأثناء الحوار ذكرتُ لها أن الدكتور مصطفى محمود رحمه الله يقول عن السعادة:

" وفي العمل ينسى الإنسان نفسه وينسى بحثه عن السعادة وهذا في الحقيقة منتهى السعادة "

فسألتني: هل منتهى السعادة أن ننسى بحثنا عنها؟ كيف ذلك؟

فقلت:

"وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها "

السعادة الحقيقية الكاملة موجودة في الجنة

الناس يبحثون في دار التعب عن السعادة ؛

ويقصدون بها الراحة الكاملة

الصحة الكاملة

المال ؛ المسكن ؛ الزواج السعيد ؛ لا مشاكل لا هموم

لا آلام لا عقبات لا منغصات ؛

كل شيء ماشي وكل شيء مضبوط !

وأكثر الأوقات التي يكبر فيها وهم الراحة الكاملة في عقل الإنسان هي أوقات الفراغ والبطالة

فحين ينشغل بعمل ما وينغمس فيه يحس بسعادة العطاء

وسعادة كونه إنسانا فيه نفع ويفعل شيئا فيه فائدة يثبت به أنه إنسان يتحرك ويسعى وينتج

هذه السعادة التي تولد من الانغماس في العمل ستنسيه بحثه عن السعادة الكاملة

التي لن تكون إلا في الجنة

والذين يذكرون الله تعالى قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض

هؤلاء يعيشون في الجنة الدنيوية قبل انتقالهم إلى جنة الدار الآخرة

واللهُ أعلم وأعز وأجل

~ ~

سؤال اطرحه على نفسك:

أنت مسلم؟ لديك وطن آمن؟

معافى في بدنك؟ وعندك قوت يومك؟

تأكّد:

أن ملايين المحرومين في كوكب الأرض يرونك قيصرا!

إذن:

أوقِف التذمر؛ وابدأ الحمد.

الحمد لله حمدا طيبا حمدا تطيب به الحياة

~ ~

لن تنسى..

..

تمشي حفيفا..

تتلفت ذات اليمين وذات الشمال..

لا أحد يعلم بجريمتك..

لكنك خائف تترقب..

تتخيل كل العيون تراقبك..

وأنت الذي يراقبها..

أنت الوحيد.. الذي يشعر بفضاعة جرمه..

يأكلك الندم بلا رحمة..

كنت تظن قلبك حديدا فإذا به إسفنجة..

يتسارع نبضك كلما رأيت المظلوم..

صوت الضمير لا يتملقك..

ولن يتردد في تقريعك:

أنت مخطئ أنت مجرم أنت ظلوم..

ولن يسكت عنك إلا حين تتوب،،

وإلا:

أبدا لن تنسى فعلك..

أبدا لن تنساه..

ولئن أنت نسيته فأبدا لن ينساك..

"إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا "

متى ستفهم ؟

أن لحظات الفرح مريبة ..

غير مأمون جانبها ..

مشكوك في أمرها ..

حتى اسمها.. كشفها ..!

"لحظات.." غالبا هكذا نسميها ..

مجرد لحظات.. تتسلل إلينا كي لا ننفطر.. ننشطر.. نصبح أشلاء ..

لحظات مسروقة ..

في دار البلاء ..

لحظات لغلاء قيمتها كانت لحظات ..

لأنها في الجنة ستمتد أمدا بعيدا ..

خلودا مديدا ..

عقودا قرونا بلا نهاية ..

لا نهاية.. لا كلل.. لا ملل ..

غبي.. ذاك الذي يريد الدنيا كلها فرحا وراحة ..

ماذا أبقيت للجنة يا هذا؟ ..

أنت هنا ضيف.. زائر.. عابر سبيل ..

متى ستفهم هذا؟ ..

متى ستفهمه لتعيش أحزانك المؤقتة ..

لتعيشها..

بفرح..

للتذكير فقط:

لا تعتقد:

أن الذين يمشون على الأرض هونا ونفوسهم تتلألأ سلاما

والذين ينطقون حكمة ويرتقون كل لحظة مقاما

والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما

لا تتوهم:

أنهم بقلبين وثلاثة أدمغة وخمس أقدام وعشرين عينا..

إنْ هم إلا بشر مثلك ولكن الهمة عالية ..

فلا تظن أنك لا تستطيع أن تكون مثلهم

لا تحتقر نفسك

انتهى .

~ ~

إنتبه..

بعد حياة حافلة بالمؤلفات التي تدافع عن الإسلام

مليئة بمجالس العلم والفقه والإيمان

مليئة بالجهاد والصبر على البلاء

وفي نهاية المطاف ...

قال ابن تيمية رحمه الله ..:[فيا ليتني منحت القرآن عمري]

احذر..

أن ينتهي عقدك مع القرآن بنهاية رمضان .

ألا هل بلغت؟

أحسن طريقة للانتقام:

إن الذي يصب عليك نكالا، ويسمعك ما لم تسمعه أنت ولا آباؤك الأولون

ويجور عليك ويتجرأ، ويسعى لإيلامك وقهرك وإذلالك

يتصاعد دخان غضبك مع كل حرف يصلك منه..

إن هذا لن تجدي كراهيتك له وغضبك منه نفعا

إن المجهود النفسي الذي تبذله لترد له الصاع صاعين هو تماما ما يرضي الجانب المظلم من نفسه

إنك لن تزداد بحقدك عليه إلا تعبا خفيا من حيث لا تشعر!

سامحه ..

اسمع نصيحتي وأرح نفسك واعف عنه ..

بل إن كنت ذا نفس عظيمة فأحسن إليه فوق عفوك عنه..

إنك حين ترد له الصاع صاعين سيرد لك صاعيك ثلاثة.. لأن هذا ببساطة ما يريحه..

أما أن ترد له إساءته بالإحسان فإنك هنا ستلجمه وتفحمه وتصدمه..

لأن هذا صعب على نفسه..

إنك بعفوك عنه تذله من حيث لا يدري..

تجعل لحم وجهه يتساقط خجلا بينه وبين نفسه..

تجعل بصيرته العمياء تبصر فجأة وترى مقدار الظلم الذي أوقعه بك في مقابل إحسانك إليه..

وعندما تسمع رجفة صوته وهو يحاول أن يداري فعلته الشنعاء ويكلمك بنبرة خفيضة..

تقرأ في نبرته كل معاني انتقامك المسالم.. كل معاني ثأرك الكريم.. كل معاني ردك الرفيع..

تريد الانتقام ممن ظلمك؟

سامحه !.. هكذا.. بكل بساطة !

أتظن أن هذا سهل على النفس؟

إن الله عز وجل خالق هذه النفس والعليم بخباياها يقول عن هذه الحالة بالذات:

"وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا الَّذينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا ذُو حَظّ عَظيم "

ذَووا الحظ العظيم لديهم صبر عظيم.. صبر رسخته الشدائد والآلام في نفوسهم المؤمنة..

إن لم تعلمك الآلام كيف تضبط غضبك فإنك لم تتألم بعد ..

إن الذي يريد الآخرة حقا سيسهل عليه ضبط انفعاله لصالح قبره..

أما بعد:

ألا تحب أن تكون ذا حظ عظيم؟

سامح ..

وكفى.

~ ~

أيها القارئ:

إستمع بقلبك:

أنت لا تعلم الغيب ولا تدري أين هي مصلحتك

"عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم "

أنصت بعقلك:

أنت إنسان لا حول لك ولا قوة ولا تدري لعلك تهرول نحو هلاكك

"وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم "

ففروا إلى الله:

قل في سجودك: اللهم دبر لي فإني لا أحسن التدبير..

"والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُون "

~ ~

كتاب الله..

" إنَّ هَذاَ الْقُرآنَ يَهْدي للَّتي هيَ أَقْوَمُ وَيُبَشّرُ المؤمنينَ الذينَ يَعمَلُونَ الصَّالحَات أنَّ لَهُم أَجْرًا كَبيرَا "

سورة الإسراء

سأبقى أكررها حتى أفارق الدنيا:

لا تهجر القرآن.

~ ~

نفسك:

عندما تشغلها بأمور عظيمة ستتفاجأ بتفاهة ما كنت مهتما به من قبل ..!

وتتساءل كيف ضيعت شيئا من وقتك الثمين على مثل هذه السفاسف ..!

وكم تجتاحك نسائم الارتياح وأنت تشاهد الشيء الذي ضخمته بغفلتك يسقط سقوطا حرا بمجرد ترفعك وتحويل اهتماماتك نحو طموحات أشرف..

شعار اليقظة:

"نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل "

~ ~

سر الراحة

النفس المطمئنة,,,

يسير صاحبها على وجه البسيطة مطمئنا خالي البال..

واثق أن نفسه التي بين جنبيه أمانة وضعها الله بين يديه

لينظر هل سيحفظها ويؤدي حقها

أم يهملها ويبخسها قدرها

الإنسان المطمئن,,

ليس شرطا أن يكون غنيا

مرتعه القصور

ومركبه السيارات الفارهة

وسياحته على جزر الكناري! ...

قد يملك الإنسان كل هذه المقومات لكنه يعيش بنفس مضطربة ويحيا كئيبا كاسف البال...

بينما ينظر باستغراب إلى جاره الفلاح الذي يسكن كوخا من خشب أو بيتا من طين

لا يملك غير قوت يومه ,,, وقد يبيت أياما طاويا بلا عشاء

ورغم ذلك يقرأ في عينيه لغة الرضا وترانيم السعادة

فيتساءل: ما السر يا ترى؟

إنها القناعة ..

لكي تطمئن النفس يجب أن تشعر بحريتها

ولكي تشعر بحريتها عليها أن ترتدي ثوب القناعة

قنوع ذلك الإنسان بمظهره؟

إذن لن يكتئب لأن فلانا أحسن منه وجها

وقنوع ببيته البسيط؟

إذن لن يشعر بالنقص لأن جاره يسكن قصرا

ذو النفس المطمئنة واثق بأن الذي قسم الرزق بين الخلائق حكيم عليم

واثق أن المعيار الوحيد للتفاضل بين البشر هو التقوى

"إنَّ أَكْرَمكُمْ عنْدَ الله أَتْقَاكُمْ"

صاحب هذه النفس العظيمة يعبر جسر الحياة رافعا بصره إلى السماء

همته تعانق الثريا

لا تحطمه التوافه

ولا يقف عند الصغائر

ثابت على قيمه

مصر على هدفه

معتزبدينه ,, فخور بمبادئه

لا تغره كثرة الهالكين

ما أكثر صفاته

ولن أحصيها عددا

فلنكن جميعا مثله

ولنسعى جميعا,,,

نحوَ نفسٍ مطمئنّة وَاثقة

~ ~

رزيقة.. ..

ستة أعوام مضت ..

منذ أن وضعوك في قبرك ..

ومازلتُ كلما دخلت هذا المعهد أراك.. قاصدة إليه على عكازتك ..

بنت الثلاثين.. تحديت المرض واتكأت على العصا وواصلت دراستك ..

إلى آخر نفس كنت تتنفسين آيات الكتاب ..

إلى آخر يوم في حياتك.. كنت النجيبة الأولى.. الممتازة.. تلميذة ابن القيم ..

مازلت أراك تتمشين في هذه الساحة.. وأنت غارقة في كتاب ما.. لاهية عن الدنيا وأهلها ..

تلتهمين الكتب بسرعة.. كنت تدركين أن الرحيل قريب.. ما كان

لديك وقت لأحد ..

مازلت أراك تستقبلينني من بعيد.. بسعادة تركضين نحوي..

وكالأطفال تصرخين..زهيرة ..!

وببراءة الأطفال تبشرينني بتطورك في أحكام الترتيل ..

وبحماس يتحدى المرض تبدئين التلاوة وتراقبين ملامحي.. تنتظرين حكمي ..!

وأنا أراقب همتك العالية.. وأستصغر نفسي.. كم كنت أستصغر نفسي أمامك ..

تغارين من إتقاني للأحكام وأنا أغار من شجاعتك.. من حبك للآخرة.. من لامبالاتك بالدنيا.. من اجتهادك في طلب العلم.. من قيامك في الليل.. من نقابك.. من هيبتك.. من بساطتك.. من تواضعك.. من أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر.. من و من و من ...

أحقا ماتت صديقتي ؟ ..

ست سنوات ومازلت أتساءل ..

أحقا ماتت ؟ ..

~ ~

اسمع.. واسمعي:

تلك الهموم التي تلتف بروحك كأفعى

وتلك المشاكل التي تتخبط فيها كأن بك مسا

وتلك الديون والأحزان والعلل النفسية والأسقام التي تحاصرك

وكل ما أنت فيه من كدر وغم وفقر وضيق واكتئاب

لا تظن أبدا:

أن ذلك ليس له علاقة بالصلاة التي أهملتها..

والصبح الذي نمت عنه

والقرآن الذي هجرته..

راجع نفسك.

~ ~

تأمل:

"أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا منْ فُرُوج "

سورة ق

تأمل السماء وعلق بها بصرك ..

واسمو بروحك لتتفتح بصيرتك ..

وقل:" رَبَّنَا مَا خَلقَتَ هَذَا بَاطلاً سُبْحَانَكَ فَقنَاَ عَذَابَ النَّار"

هذه من أمتع لحظات الحياة الدنيا..

إن كنتم تعلمون ..

~ ~

أسلوب فهم:

لا تقارن نفسك بمن هو أكثر منك معصية لله فتغتر، بل قارنها بمن هو أكثر منك طاعة وعبودية له

لتعرف حجمك الحقيقي

"فَاسْتَبقوُا الخَيْرَات "

~ ~

عزة نفس:

قيل :

وَلَوْ لم تَكُن نَفْسي عَلَيَّ عَزيزَةً .. لمَكَنَّتهُاَ من كُلّ نَذْل تُحَاربُه،

دع الذين يتفرغون لك بالأذى يملؤون صحائفهم بالخزي يوم الحساب

وتفرغ أنت لذكر ربك وفعل الصالحات إن كنت من أولي الألباب،

"وَلَا تَهنوُا وَلَا تَحْزَنوُا وَأنتُمُ الأعْلَوْنَ إن كُنتُم مُؤْمنين "

~ ~

صفعة ضرورية:

من الأحسن لك أن تتلقى صفعة تجعلك تفيق من أوهامك

صفعة الحقيقة ألم تأتي من بعده الراحة

ولا خير في وهم يأتي من بعده الألم

كن مع الحق ولا تبالي

اصفع بالحق أوهامك

"وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ البَاطلُ إنَّ الْبَاطلَ كَانَ زَهُوقَا"

لصوص:

ثمّة لصوص يتربصون بأفكارنا..يحاولون تشويهها..يريدون العبث بمبادئها وأصولها..يتسللون إلى حصون قِيَمنا المنيعة..يتسللون عبر نبراتِ رفقة السوء..عبر سيناريو فلم نتابعه شبه سكارى.. عبر صفحات جرائد تُسوّق للقيل والقال وتتسول الشائعات والأكاذيب والفتن.. عبر لحظات فراغ تنشط فيها الأسطوانات الصدئة لتعزف لحن الأوهام..

ذلك أن تركيبتنا البشرية فُطِرت على السعي والحركة.. ولا يستسلم المرء للحظة فراغ وكسل إلا أحاطت به الأفكار السوداء وبدأت أنسجة الإثم تحيك الرغبة في المعصية داخل نفسه الضعيفة ضعيف هذا الإنسان أمام كلمة " الفراغ "... ضعيفة نفسُه أمام " ليت".. و " ماذا لو".. و " سوف أفعل "..

مَا مَضَى فَاتَ وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ... وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

" ليته " يفقه معنى هذا البيت.. و " ماذا لو " عاش يومه كأنه آخر يوم في حياته.. وكفّ عن " سوف أفعل "... وقام بدل قولها بفعلٍ يثبت به ذاته الضائعة...

~ ~ ~

اللون الأصفر..

يتسلل إلى الأوراق في قريتي .. ليكسو الأشجار بعد أيام حلة صفراء فاقع لونها .. لا أدري هل تسر الناظرين .. لكنها تسرني أنا .. تسرني كثيرا ..

أسميه الفصل الصادق .. فصل الخريف ..

حينما تشيخ الأوراق وتيبس ثم تتساقط .. كما نشيخ نحن ونحث الخُطى نحو المقابر ..

ينثر الخريف على الثرى أوراقه لتستحيل طعاما للمواشي أو تتحلل لتعود إلى أصلها الأول .. التراب ..

في الخريف تهدأ نفسي تماما .. حتى من العصبية اللائرادية التي يسببها الكيماوي .. تهدأ ..

وأكثر ماتهدأ حين تكون الأوراق كلها صفراء ..

اللون الأخضر لا يلائم الحياة الدنيا ..

الدنيا فناء ..

فناء لونه جميل أصفر ..

لذلك أشم رائحة الصدق والحقيقة تنتشر في الأجواء كل خريف ..

لا أهتم بعدها لأجواء الشتاء ..

فالشتاء يشبه الرحم ..

فيه تستعد النباتات لميلاد جديد ..

تختفي تلك الأوراق الصفراء التي كانت في الخريف تحتضر ..

يختفي معها الصدق ليفسح المجال لميلاد الزخرف الجديد ..

أوراق خضراء من جديد ..

أحب الأخضر كلون يذكرني بالجنة .. لكنني لا أحب رؤيته كلون لحلة الدنيا ..

الدنيا لونها لون الفناء واللاخلود ..

الدنيا لونها أصفر يابس يصبح عما قليل ترابا ..

التراب ..

حتى تراب الخريف تراب صادق ..

تراب حقيقي ..

ولا أقول كما قال الشاعر واصفا حال العصافير والطبيعة في فصل الخريف :

وأصختُ للأطيار أسمع شدوها ... فإذا الطيور سكتن مكتئبات

وإذا الطبيعة وجهها متجهم ... عريت من النغمات والبسمات

بل أقول :

وأصخت للأطيار أسمع تسبيحها .. فإذا الطيور سكتن متأملات

وإذا الطبيعة وجهها متفكر .. عريت من الأهواء والغفلات

...

ألا ليت العام كله خريفا ..

ليتت الدنيا كلها صفراء ..

ليتنا جميعا .. كالخريف صادقون ..

~ ~ ~

خولة رحمها الله كانت ورقة خضراء .. لم تكن تريد ارتداء حلة صفراء ..

ومن شدة تمسكها بالحياة تمنيتُ لو استطعت أن أتبادل معها الحلل ..

أن أهديها الأخضر الذي أزهد فيه .. وتهديني الأصفر الذي أحبه ..

خربشات .. مجرد خربشات ..

ترى ماحكم الخربشات ..

اللهم اغفر لي هذه الخربشات ..

~ ~ ~

نركض.. خلف مشاغل الحياة ..

إلى أن تسقط نفوسنا حشيا رابية ..

نلهث بأفكارنا نسابق الزمن إلى مقاعد المستقبل..

ولا نزال ذاهلين عن وجداننا إلى أن،،

يداهمنا فجأة ألم.. صداع.. حمى.. وسعال ..

تعب.. إرهاق.. ضعف.. وهزال ..

نحاول التجاهل.. نمضي في مشاغلنا ..

لا.. لا فائدة..

لا حل سوى السرير..

هناك تبدأ الحسابات ..

حسب طول المرض من قصره..

ندخل فجأة.. برزخا دنيويا..

حالة نفسية.. لا موت هي ولا حياة..

نأخذ عطلة مرضية.. من أعمالنا.. ومن حياتنا ..

إننا دون أن نشعر.. نغادر الحياة بطريقة ما..

في نفس لحظة المرض.. نغادرها بإحساسنا ..

حتى والروح تسري في الجسد ..

ربما.. كان هذا الإحساس تحديدا ..

ربما.. كان تفسيرا لكون المرض.. شقيق الموت ..

هذه النفوس التي تألف المرض بعد فترة ..

لن يصعب عليها إلف شقيقه ..

المرض انتقال.. إلى انتقال ..

إن أدى نوع من الأمراض إلى الموت ..

فالموت ليس النهاية.. إنه انتقال.. انتقال ..

إلى تلك الحياة الخالدة ..

شعار الحقيقة :

فلنصاحب الموت

تم الكتاب.